المبحث الأول

العقلانية التقليدية.

إن ما يؤكد عليه أصحاب النزعة العقلية هو أن العقل قوة فطرية لدى جميع الناس. إننا إذ أردنا أن نتوصل إلى معرفة حقيقية عن طبيعة العالم فإن السبيل إلى ذلك هو طريق الاستدلال المحض من دون اللجوء إلى أية مقدمات تجريبية.

ومن أهم سمات المعرفة العقلية أنها معرفة أولية "A priori" يقصد بها في هذا الجانب مجموع الحقائق التي تكون فطرية في العقل، وتكون واضحة بذاتها، ومن ثم تكون صادقة بالضرورة، أو يقصد بها مبادئ المعرفة التي نحصل عليها ليس بفعل الاكتساب؛ فهي لا تجيء عن تجربة، بل هي موجودة في العقل بالقوة سابقة ومستقلة عن كل تجربة، وهي في المقابل تطلق ضد المعرفة التجريبية البعدية "A posteriori" التي لا تكون ممكنة إلا عن طريق التجربة[1].

ويمكن أن نحدد معنى العقل أولا بأنه « ملكة الربط بين الأفكار وفقا لمبادئ كلية، ولكن مجرد الربط بين الأفكار لا يكفي لتحديد العقل، إذ الحيوان يربط بين الصور الحسية فيتوقع تعاقب صورة بعد صورة، بحسب مات اعتاد عليه من رؤيتها متعاقبة، أما الإنسان العاقل فيدرك أن هذا التعاقب يتم وفقا لمبدأ ضروري كلي. ومن هنا يمكن أن نحدد العقل بأنه قوانين الفكر الضرورية"[2].

وأهم ما يميز هذه القوانين التي تمثل مبادئ العقل السمات الثلاث التالية: هي أنها:

([1]).مجموعة من المؤلفين: بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، جـ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، القاهرة، مصر، ١٩٩٨، ص ١٩٦.

([2]).عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، جـ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٤، ص ٧٢، ٧٣.

١- **مطلقة**، أي أنه لا يتغير معناها بتغير ظروف المكان والزمان، وضدها النسبية.

٢- **ضرورية**، أي أنها واضحة بذاتها وذات نتيجة، فهي ضرورية الصدق.

٣- **كلية**، أي أنها عالمة ومشتركة بين كل الناس، إذ تسلّم بها جميع العقول وتحكم كل الأشياء وضدها الجزئية الخاصة بشخص معين فقط، أو بشيء محدّد فحسب.

واتفق العقليون في نظرتهم إلى قضايا المعرفة، والعلوم الصورية خاصة، ومنها الرياضيات والمنطق، على أنها تقوم على مبادئ وأحكام تتوافر فيها هذه السمات الثلاث، وعليه فهي تمثّل النموذج الصحيح لما يجب أن تكون عليه كل مبادئ المعرفة البشرية[1].

ولهذا شكّل المذهب العقلي تيارًا في المعرفة، يذهب إلى أنه لا يمكن استنباط الكلية والضرورية- وهما الصفتان المنطقيتان الملازمتان للمعرفة والحقيقة- من التجربة وتعميمها، بل يمكن استنباطهما من العقل فقط؛ وذلك إما من خلال المبادئ الأولية أو الأفكار الفطرية كما هو الحال عند ديكارت، أو من خلال مفاهيم لا توجد إلا في شكل استعدادات مسبقة أو أحكام تركيبية مسبقة في العقل. مثلما هو الأمر عند سبينوزا وكانط[2].

ويذهب الفيلسوف الألماني"هانز رايشنباخ"إلى القول بأن "البحث عن اليقين هو الذي يجعل الفيلسوف يتجاهل دور الملاحظ في المعرفة، ولما كان يستهدف معرفة ذات يقين مطلق، فإنه لا يستطيع أن يقبل نتائج الملاحظات. إنه يتحول إلى الرياضيات بوصفها المصدر المقبول الوحيد

([1]).مجموعة من المؤلفين: بناء المفاهيم، ص ص ١٩٧، ١٩٨.

([2]).مجموعة من المؤلفين: مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، دراسة تاريخية نقدية، إشراف الدكتور الزواوي بغورة، مطبعة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (د.ت)، ص ١٠.

للحقيقة، وهكذا فإن المثل الأعلى الذي يتجه إلى صنع المعرفة بصيغة رياضية كاملة، وإلى جعل الفيزياء من نفس نمط الهندسة والحساب ينشأ عن الرغبة في الاهتداء إلى يقين مطلق لقوانين الطبيعة"[1].

من أجل التدليل على هذه الأفكار سأتناول مسألة المعرفة عند "أفلاطون"، وارتباطها بالعقل وأبيّن كيف بنى المعرفة على عالم المثل واعتبره رمزا للحقيقة؟ وكذلك عند الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" الذي أكّد على دور العقل في المعرفة وعلى اعتبار الرياضيات نموذجًا للمعقولية واليقين.

المطلب الأول: أفلاطون* PLATON (٤٢٨ ق.م-٣٤٧ ق.م)

أولا: نظرية المعرفة.

أكثر ما اشتهر به "أفلاطون" تأسيسه لنظرية في المعرفة، تتجلى معالمها في نظريته المشهورة "نظرية المثل" ويعني بالمثال "eidos" الحقيقة الثابتة وراء الظواهر المحسوسة الدائمة التغير[2].

والحديث عن المعرفة عند "أفلاطون" يعني أول ما يعني واجب التفرقة بين العلم غير الصحيح والعلم الصحيح؛ بمعنى أن نفرّق بين الأقوال الشعبية وبين الأقوال العلمية الصحيحة، حيث يعتبر "أفلاطون" أن مصدر المعرفة عند

(1). هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ت: فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٠.

(*). فيلسوف يوناني، يعد من أعظم فلاسفة العالم، ولد في أثينا في سنة ٤٢٨ ق.م يرجع الفضل في تنشئته فلسفيا إلى سقراط.. أنشأ "الأكاديمية" حوالي سنة ٣٨٧ ق.م بالقرب من ضريح البطل "أكاديموس" ومن هنا سميت بهذا الاسم "الأكاديمية". استمر في عمله حتى وفاته سنة ٣٤٧ ق.م. من أهم مؤلفاته: الدفاع عن سقراط- السوفسطائي- طيماوس.

(2). أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها، دار المعارف، مصر، ١٩٨٨، ص١٦٩.

عامة الناس هو أولا **الإدراك الحسي**، وثانيا **التصور الصحيح**. إلا أنه لا يعتبر الإدراك الحسي هو العلم بالمعنى الحقيقي، لأن الإدراك الحسي يصوّر لنا الشيء تصويرات متناقضة، فيصوّر الواحد باردًا وحارًا، وعليه فإننا نجد الحواس تخدعنا، و إلا فإنه إذا كان التصور هو العلم بالمعنى الحقيقي، فإننا لا نستطيع حينئذ أن نفسّر التصور الخاطئ، لأن التصور الخاطئ أو التصور بوجه عام، إما أن يتعلّق بما هو معلوم، وإما أن يتعلّق بما هو مجهول، وما يتعلق بما هو معلوم لا يمكن إلا أن يكون علمًا صحيحًا، فلا يمكن إذن أن يكون تصورًا خاطئا.

ويخلص "أفلاطون" إلى أن العلم والتصور ليس شيئا واحدًا؛ وإنما هو دائما الإدراك اليقيني المطابق للواقع. ولا يمكن أن يوجد ما يسمى بعلم خاطئ[1].

لأن هناك اختلافًا رئيسيًا بين حقيقة التصور الصحيح، وبين حقيقة العلم بمعناه الحقيقي، فالعلم يتعلق بحقيقة الأشياء، على أساس أن هذه الحقيقة حقيقة ضرورية صادرة عن طبيعة الأشياء نفسها، أما التصور الصحيح فلا يلاحظ فيه فكرة الضرورة. ويذهب أفلاطون إلى أن التصور الصحيح يتعلّق بالصيرورة، بينما العلم بمعناه الحقيقي يتعلق بالوجود، ومنه فالتصور الصحيح في نظره مرتبة وسطى بين الإدراك الحسي وبين العلم الحقيقي.

ولهذا فالحقيقة في نظر "أفلاطون" تمتاز دائما بالثبات، فإذا انعدم الثبات انعدمت الحقيقة[2].

([1]).عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، جـ١، ص١٥٧-١٨٥.

([2]).المرجع نفسه: ص ١٥٨-١٦٠.

ثانيا: المعرفة والنفس.

يربط "أفلاطون" بين المعرفة والنفس الإنسانية، ويعتبر النفس خالدة. ويدلّل على موقفه هذا بما يلي: إننا حينما نرى المحسوس ننتقل بالضرورة إلى صورته، وندرك في الحال أن المحسوس غير الصورة، ويتساءل أفلاطون من أين هذا الاختلاف؟ وكيف حصلنا على العلم بالصور، إذا كان المحسوس ليس مكافئا للصورة؟ نفسّر ذلك بكون النفس قد عرفت هذه الصورة في حياة سابقة، وتتم عملية المعرفة هذه بفعل التذكر على أساس أن النفس كانت تحيى حياة عقلية وتأمّل للصور في عالم المثل ومنه فهي **أزلية**.

فنظرية المعرفة عند "أفلاطون" تضطرّه إلى القول بالتذكر، و إلا كيف تتم المعرفة بمعنى العلم، إذا لم يكن هناك تذكر من النفس لمعارف سبق لها وأن أدركتها وحصلتها في الحياة السابقة؟ فالعلم إذن هو ارتفاع فوق المحسوس يعبر عن جملة الأفكار والصور التي تصل إلينا عن طريق الحس، انطلاقا من أن الإنسان لا يبحث عن شيء يجهله كل الجهل، بل يبحث عن معرفة سابقة رآها في عالم المثل، تذكره بمناسبة الأشياء التي تظهر أمامه[1].

وما تجدر الإشارة إليه هو أن"أفلاطون" كان ينظر إلى الرياضيات على أنها أسمى صور المعرفة، وقد أسهم رأيه هذا كثيرا في إشاعة الرأي القائل بأن المعرفة لا تكون معرفة على الإطلاق، إن لم تتخذ صورة رياضية.

و المقصود بهذا الكلام هو أن"أفلاطون" كان يستبعد تماما فكرة المعرفة التجريبية، على أساس أن حججها مبنية على احتمالات زائفة. ولأنه كان ينشد اليقين[2].

([1]).عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ص ١٦٥-١٧٨.

([2]).هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ص٣٨.

ينتهي بنا المطاف في عرضنا لنظرية المعرفة عند "أفلاطون" عن تصنيفه لأنواع المعرفة في العلوم المختلفة. استنادا إلى مبدأ التفرقة التي يقيمها بين العالم المحسوس والعالم المعقول، فيسمي المعرفة التي تستمد من العالم الحسي بالظن "Doxa" أما المعرفة التي تستمد من العالم المعقول فيسميها العلم أو التعقل "Noesis"[1].

ويعرض "أفلاطون" درجات المعرفة الجدلية بمختلف أشكالها كما يلي:

فيقول: "فالعقل أرفعها، والفهم هو التالي له، والاعتقاد هو الثالث، والتخيل هو الأخير" على هذا النحو يرتقي الفيلسوف في درجات المعرفة حتى تتم له رؤية الحقيقة التي تظهر في النفس كما ينبثق الضوء من الظلمة[2].

المطلب الثاني: رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠)

الحديث عن فلسفة "ديكارت" يأخذنا إلى الحديث عن الحقيقة التي ظل ينشدها، وجعل من العقل أساسا لبلوغها، اعتقادا منه بأن العقل هو قسمة موزعة بالعدل بين البشر، حيث يقول: "العقل هو أعدل الأشياء، توزعا بين الناس، لأن كل فرد يعتقد أنه قد أوتي منه الكفاية، حتى الذين يصعب إرضاؤهم بأي شيء آخر ليس من عادتهم أن يرغبوا في أكثر مما أصابوا منه، وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك، بل الراجح أن يكون هذا شاهدا على

([1]). أفلاطون: الجمهورية، ت: جيلا لي اليابس، موفم للنشر، وحدة الرغاية، الجزائر، ١٩٩٠، ص٣٠٧.

([2]). أميرة حلمي مطر: الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها، ص١٨٥.

أن قوة الإصابة في الحكم، وتميز الحق من الباطل وهي القوة التي يطلق عليها في الحقيقة اسم العقل... واحدة بالفطرة عند جميع الناس"[1].

ومقصود "ديكارت" هنا أن العقل قوة قادرة على المعرفة المؤكدة، غير المشكوك فيها، بعيدا عن خداع الحواس، ويذهب إلى اعتبار العقل المشترك عند جميع البشر قادر على إقامة المعرفة الموضوعية اليقينية. وسبيل اليقين بالنسبة له هو المنهج الاستنباطي القياسي، وليس الاستقرائي[2].

ويقرّر أن جميع أفعال العقل التي يمكن أن نصل بها إلى المعرفة الحقيقية الصادقة تتمثل في فعلين اثنين هما: الحدس"Intuition" والاستنباط "Déduction". **والحدس** عنده هو نور فطري أو غريزة عقلية تمكن العقل من إدراك الحقيقة إدراكا مباشرا. وعليه فهو إدراك يأتي على شكل دفعة واحدة، باعتباره رؤية عقلية بلغت من الوضوح درجة، لا يمكن الشك في صدقها، لأنها لا تبنى على شهادة الحواس ولا إلى أحكام الخيال وإنما هو عمل عقلي خالص[3].

أما **الاستنباط** فإن "ديكارت" يثق في المعرفة المتوصل إليها بواسطته، لأن الاستقراء في نظره كثيرا ما يؤدي إلى استدلالات كاذبة أو احتمالية. نظر فرأى أن الحساب والهندسة يستخدمان الاستنباط، و أنهما و حدهما يحققان أعلى درجات اليقين بالإضافة إلى كونها أكثر العلوم بساطة ووضوحا، ويذهب إلى تأكيد كلامه هذا بقوله:"لأن الأمر الذي اتخذته من قبل

([1]). رينيه ديكارت: مقالة الطريقة، ت: جميل صليبا، موفم للنشر، وحدة الرغاية، الجزائر، ١٩٩١، ص٣.

([2]). د. نايف معروف: الإنسان والعقل، سبيل الرشاد، ط١، بيروت، ١٩٩٥، ص٨٨- ٨٩.

([3]). مجموعة من المؤلفين: بناء المفاهيم، جـ١، ص١٩٩- ٢٠٠.

قاعدة، وهو أن الأشياء التي نتصوّرها بالغة الوضوح والتميز صحيحة كلها. لم أتيقنه هذا اليقين"[1].

وثقة "ديكارت" في الرياضيات أدّت به إلى اعتبار قضايا العلم يقين لا احتمال فيه[2]. واليقين نهاية مطاف في منهج "ديكارت" الجديد، المبني على الشك المنهجي كأول طريق، حيث يرى أنه ينبغي أن نبدأ بحثنا الفلسفي بوضع كل معارفنا التي سبق لنا وأن حصّلناها موضع الشك ووضع كل معتقداتنا العامة موضع الارتياب، وننظر في أنفسنا لنعثر على ما في عقولنا من أفكار ومبادئ سابقة على تلك المعارف، وسوف نجد أنها واضحة ويقينية[3].

هذه الأفكار توحي لنا بأن "ديكارت" كان يريد أن نبدأ معرفتنا مما هو بديهي وصولا إلى ما يمكن استنباطه، وعليه رأى أن تحقيق هذا الهدف يتوقف على بذر الشك فيما لدينا من أفكار ومعتقدات، الأمر الذي أدّى به إلى أن اكتشف القضية الأولى التي لا شك فيها. و هي أنه اكتشف وجود ذاته وقد عبّر عنها بقوله: "أنا أفكر إذا أنا موجود" "je penses donc je sui" ومن هذا المبدأ بنى نظريته المعرفية المتكاملة والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- يولد الإنسان وهو مزوّد بأفكار فطرية صادقة وهبها له الله. وهي تلك التصورات التي تبدو للعقل كبديهية يسهل إدراكها، ولا سبيل للخطأ إليها. مثل الحركة والامتداد والشكل من الأمور المادية. وليس أدلّ على ما اعتبره أفكارا فطرية ما ذكره ديكارت في بعض رسائله حيث يقول:"الأمور الفطرية عبارة عن المعلومات البدائية الأصلية التي نتوصّل بها إلى سائر المعارف، وهي

([1]). رينيه ديكارت: مقالة الطريقة، ص٥٠.

([2]). د. نايف معروف: الإنسان والعقل، ص٨٩.

([3]). د. محمود زيدان: مناهج البحث الفلسفي، دار الأحد، لبنان، ١٩٧٤، ص٥١.

قليلة جدا"[1]. ومن بين ما يذكره ديكارت كأمثلة على ذلك: الوجود، والعدد، والزمان، وامتداد الجسم.

٢- هناك أفكار في شكل تصورات يبتكرها الخيال في الذهن، يسميها ديكارت بالأفكار الخيالية، ومن بين أهم عناصرها كونها مأخوذة من الواقع التجريبي، غير أنها لا تعبر عن حقيقة الواقع التجريبي أبدا.

٣- هناك أفكار حسية أو تجريبية، يرى "ديكارت" أننا نتوصّل إليها بالإدراك الحسي، لكنها أفكار طارئة تعبّر عن انفعالات النفس بفعل مؤثر خارجي، كفكرة الصوت والطعم واللون.. الخ[2].

([1]). العاملي: نظرية المعرفة، ص٩٦.

([2]). محمود زيدان: نظرية المعرفة، ص٣٦.